عبادة الله والنِعمة

توبةُ الابن الضائع هي دعوةٌ لكلِّ ضائعٍ، كي يقبل مُبادرة الله له في العودة إلى البيت الوالديِّ، مهما كانت خطيئته حتَّى وإن وصل إلى أدنى مستوى من الدَنس والنجاسة. فالتائب لله وللكنيسة يتعلَّم أن يُحِبَّ كثيرًا فيُغفَر له الكثير ويدخل في فرح الملكوت السماويِّ بالحُبِّ الإلهيِّ.

أحبَّائي، بين مثلَي الخروف الضائع والدرهم الضائع من جهَّة، ومثل الوكيل الخائن وعبادة المال من جهَّةٍ ثانية، تكلَّم يسوع عن الابن الضائع الَّذي تاب وعاد إلى البيت الأبويِّ خاضعًا وطائعًا. يكشفُ لنا هذا المثل فرحة الثالوث الأقدَس بتائبٍ واحدٍ يعود عن ضلاله وخطيئته، فيُشركُه بوليمة مجد الملكوت. يُقسَمُ هذا النَصُّ إلى مقدِّمة وجزئَين. **المُقدَّمة تتحدَّثُ عن استيلاء الابن الأصغَر على حصَّته** من الميراث قبل وفاة والدِه. **الجزء الأوَّل يتمحور حول ضلال الابن الأصغَر** وخروجِه عن الطاعة البنويَّة ليُصبحَ وثنيًّا فاسدًا عبدًا للخطيئة، ثمَّ توبته وعودته إلى حرِّيَّة أبناء الله ومجد السماء. **والجزءُ الثاني يُظهِر لنا صورة الابن الأكبَر الحاقد الَّذي عاش عبدًا طوال حياته في البيت الأبويّ**. إذًا، يتمثَّل هذا النَصّ بثلاثة أشخاص رئيسيَّة هم: الأب والابن الأصغَر والابن الأكبَر.

نلاحظُ أوَّلاً أنَّ الأبَ حمَّل وَلَدَاه مسؤوليَّة حُرِّيَّتهما، كي يتصرَّفا بها من ضمن بنوَّتهما له وليس كعبدَين، لأنَّهما إبنان لربِّ البيت. **وهذا يدلُّ على المسؤوليَّة الحُرَّة الَّتي أولاها الله الآبُ للإنسان الأوَّل** ودعاه **بالروح القُدُس** لكي يحفظ **كلمته الإلهيَّة** (يسوع المسيح)، الَّذي لم يكُن قد تجسَّدَ بعد، ليستمرَّ حرًّا كابنٍ لله. فالحُرِّيَّة المسؤولة الَّتي أولاها الله الآبُ للإنسان لم تسمح له بأن يَفرُض على الإنسان شيئًا، بل أن تُوصيه بالأمانة والحقيقة ليبقى حرًّا. **في إنجيل اليوم، نجدُ أنَّ الابن الأصغر كان وقحًا** جدًّا حين ورثَ أباهُ الَّذي ما زال حيًّا، مِمَّا حدا بكبريائه وشهواته أن تُسيطر على نفسه وتقودَه إلى التمرُّد والانفصال عن البيت الوالدِيِّ، والذهاب إلى بلدٍ بعيدٍ، أي إلى بلدٍ وثنيٍّ حيث ترك لشهواته أن تتلذَّذ بأقصى درجات التلذُّذ. وهكذا، بدَّد كلَّ ما ورثهُ من أبيه في الزنى والفساد التامّ، فخسر بنوَّته للآب وحماية الروح القُدُس ونعمة الكلمة الإلهيَّة وأصبح عبدًا للخطيئة والشرِّير. عندها، لم يجِد أحدًا يلتفت إليه، فأضحى وحيدًا بلا مُشفِق ولا رفيق، فالتجأ للعمل في رعاية الخنازير الَّتي تُعتَبر مصدر النجاسة والأرواح الشرِّيرة والخطيئة. لا بل منعته هذه الخنازير من أن يأكل من الخرنوب الَّذي تقتاه. فشعر حينها بمُنتهى الذلِّ الَّذي وصل إليه، لأنَّ الجوع كاد يؤدِّي به إلى موت الجسد والخطيئة ورعاية الخنازير ورفضها إطعامه كادت تؤدِّي به لموت النفس والهلاك الأبديِّ. هذه "هي حالُ مَن يَدَّخِر لنفسِه، ولا يغتني لله" (لو12: 21)، يصل إلى حافَّة الموت الجسديِّ وموت النَفسِ أي الهلاك الأبديّ.

لكنَّ **هذا الابن الأصغَر**، "**رجِعَ إلى نفسه**" (لو15: 17) **بإلهامٍ من الروحِ القُدُس، ووجَدَ كلمةَ الله يسوع المسيح تُنيرُه من جديدٍ ليلتجئ إلى البنُوَّة للآب السماويّ، فمضى إلى أبيه** قائلاً: "يا أبي، خطِئتُ إلى السماء وأمامكَ. ولا أستحِقُّ بعدُ أن أُدعى لكَ ابنًا. فاجعلني كأحدِ أُجرائكَ!" (لو15: 18–21). في هذا المشهَد، **عبَّر الابنُ الأصغَر الَّذي مثَّل الخطأة والعشَّار والوثَن واللصَّ اليمين عن توبتِه مُعترفًا**

بندامةٍ عن خطيئته وعُصيانه وعن عدم استحقاقه ليكون ابنًا من جديد بل أجيرًا، وذلك أمام السماء أي الله وأمام أبيه أي الكاهن. وهكذا فعلَ الخطأةُ والعالَم الوثنيُّ عند تجسُّد ابن الله الحيِّ الرَبّ يسوع المسيح، فأتوا إليه ساجدين عابدين طالبين الرحمة والنِعمة والخلاص. **إثرَ هذه التوبة العلنيَّة، عبَّر الأبُ عن فرحتِه بابنه العائد، "فتحنَّن عليه، وأسرَعَ فألقى بنفسه على عُنُقِهِ وقبَّلَه طويلاً"** (لو15: 20). نعم لقد تحرَّكَت أحشاءُ الأب لأنَّ الحُبَّ الإلهيَّ يفرحُ "بخاطئٍ واحدٍ يتوب" (لو15: 7) وينسكِبُ عليه ويغسلَه من خطاياه ونجاسته ويغفرَ له بالقبلة المُقدَّسة. **وهنا عانقَ الأبُ ابنه وقبَّله طويلاً دلالةً على أنَّه قد غفر لابنه التائب خطاياه الكثيرة، كما غفر يسوع للمرأة الخاطئة خطاياها الكثيرة لأنَّها تابت وأحبَّت كثيرًا** (لو7: 47). وهكذا، طلب الأبُ من الخدَم أن **يُلبسوا الابن التائب ثوب الطهارة والعماد المُقدَّس والملوكيَّة الَّذي يعيد له حالة البنوَّة للآب السماويِّ، وخاتم السلطة الَّذي يمنحه قوَّة الروح القُدُس، وحذاء الحُرِّيَّة الَّذي مع خاتم السلطة يُكرِّساه لهذه البنوَّة لله الآب،** وأن **يُحَضِّروا وليمة الفرح، وليمة عُرسِ الحَمَل المسيح الفادي، دلالةً على انتمائه لجسد المسيح السرِّيِّ** – الكنيسة المُقدَّسة، أي لأبناء ملكوت الله الَّذين يُشاركون في الوليمة السماويَّة الدائمة لمجد الثالوث الأقدَس. فهل نجرأ كمسيحيِّين في هذا الزمن الصعب علينا وعلى كلِّ العالَم، شرقًا وغربًا، على استلهام الروح القُدُس ليُثمرَ في قلوبنا سلامًا وحُبًّا، وعلى الالتزام بتعليم المسيح تائبين تُجاه الآب السماويِّ والكنيسة، فنشهد السلام والحُبَّ والفرح؟!

أحبَّائي، ننتقل الآن إلى **الابن الأكبَر الَّذي غضِبَ كالفرِّيسيِّين واليهود المُتعنِّتين** الَّذين يكرهون الوثنيِّين والخطأة والعشَّارين، وكرهوا يسوع لأنَّه يُجالس الخطأة والعشَّارين ويدعوهم للتوبة والانخراط في طريق الملكوت السماويِّ. **فالابنُ الأكبر رفض عودة أخيه أيضًا كما** رفض المسيحيُّون من أصلٍ يهوديٍّ المسيحيِّين من أصلٍ وثنيٍّ أو الوثنيِّين الآتين للإيمان المسيحيِّ. ولكنَّه **عبَّر عن ذروة حقدِه وكراهيتِه وعبوديَّتِه لَمَّا قال لأبيه:** "ها أنا أخدُمُكَ كلَّ هذه السنين، ولم أُخالِف لكَ يومًا أمرًا، ولم تُعطِني مرَّةً جديًا، لأتنعَّم مع أصدقائي. ولكن لَمَّا جاءَ ابنُكَ هذا..." (لو15: 29–30). **لقد أظهرَ فعلاً أنَّه عبدًا وهو في بيت أبيه بسبب كبريائه وطمعه وحقد،** وقد رفض الاعتراف بأخيه التائب خوفًا من أن يأخذ شيئًا من الميراث الَّذي يُعتَبر له. أمام هذا الوضع، **تَصَرَّف الأب بحُبٍّ تُجاه ولده الأكبر وأكَّد له أنَّ كلَّ الإرث محفوظٌ له، وصحَّح له تعبيره تُجاه أخيه** وقال له: "ينبغي أن نتنعَّم ونفرح، لأنَّ أخاكَ هذا كان ميتًا فعاش، وضائعًا فوُجِد" (لو15: 32). **فمِمَّا الخوف أيُّها الابن الأكبر، فكلُّ شيءٍ هو لكَ، تُبْ واخلع عنكَ حقدكَ وبغضكَ تُجاه أخيكَ وانفُض عنكَ الغُبار الَّذي نجَّس ثوبكَ الملوكيَّ وافرح بعودتِه،** لأنَّكَ إن لم تفعَل فأنتَ أسوأ منه، لأنَّه هو لم يَكُن قبل توبته قد فهِمَ الحقيقة، أمَّا أنتَ فتعرفها وتعيش في صميمها، لكنَّكَ لا تُفكِّر إلاَّ بذاتك. **لنعتبر أنا ككاهن شردتُ بعيدًا، لا سمح الله، فهل يجوز أن لا أُقبَل بين أهل بيتي لحظة توبتي، والسماءُ كلُّها تبتهج وتفرح بتائبٍ واحد؟** لا يا إخوتي، على **الَّذي يعتبر نفسه الأكبر أن يكون كبيرًا ويتصرَّف بمحبَّة ورحمة،** وإلاَّ فمصيرُه مصير اليهود الَّذي يتعبرون أنفسهم كبارًا وشعب الله المُختار، فقال لهم يسوع: "ستموتون في خطاياكم... أنتم من أبٍ هو إبليس" (يو8: 24+44). نعم، **لقد دسَّ يهودُ التَلْمُود، الَّذين أنكروا مسيحنا الفادي، سمومهم القاتلة للنفس والجسد**

في عالمنا وكنيستنا ورُعاتنا ورعايانا وعائلاتنا وفي كلِّ الأديان والفلسفات وحتَّى الملحدين، كي يجعلوا بخبثهم البشريَّة تنجذب وتؤمن بمسيحهم الدَجَّال، فيُهلِكوهم معهم.

أحبَّائي، **وضْعُ الشعب اليهوديِّ الَّذي اؤْتُمِن على وديعة استقبال ابن الله المسيح الرَبّ كان مثل وضع الابن الأكبر**، إذ رفض اليهود أبناء البيت ابن الله الآب كما رفض الابن الأكبر أخاه الآتي من عالَم الوثَن. في إنجيل اليوم، **يُريد الأبُ أن يرى وَلَدَاه يدخُلان فرح الملكوت السماويِّ** ويكتشفان حقيقة أُخوَّتهما باشتراكهما في الوليمة السماويَّة. فاللهُ الآبُ أرسلَ ابنه الوحيد بحلول الروح القُدُس في أحشاء مريم البتول، ليُعيد الوثنيِّين عن ضلالهم وليُنقذ اليهود من كبريائهم. **فالأبُ الَّذي يُمثِّل الآب السماويَّ احتضَنَ الابن التائب الَّذي سمع إلهامات الروح القُدُس ونفَّذ وصيَّة المسيح ابن الله وتاب مُعترفًا وخاضعًا بتواضُع، هو نفسُه سكبَ روحَه القدُّوس على الابن الغاضِب كي يتوبَ بدوره ويعمل بوصيَّة يسوع المسيح مُتقدِّمًا بتواضُعٍ إلى البيت الوالديِّ حيث الفرح الحقيقيُّ والسلام الدائم.** هل سنتوب كمسيحيِّين نعتبر ذواتنا أبناء البيت كما تاب الابن الأصغَر، أمَّا سنستمرُّ في غضبنا وحقدنا وعدائيَّتنا، فتزداد البشريَّة انحرافاتٍ ونترك الساحة لقوى الشرِّ والظلام؟

لنُصلِّ: "رنِّموا للهِ أيُّها الصِدِّيقون، فإنَّ التَسبيحَ يَجمُلُ بالمُستقيمين... كلمةُ الرَبِّ مُستقيمةٌ وجميعَ صُنْعِه بأمانةٍ. يُحِبُّ البِرَّ والعدلَ، ومِن رحمةِ الرَبِّ امتلأتِ الأرض. **بكلمةِ (الله الابن) الرَبِّ (الله الآب) صُنِعَتِ السموات، وبروحِ فِيهِ (الروح القُدُس) كلُّ جُنودِها**... طوبى للأُمَّةِ الَّتي إلهُها الرَبُّ وللشعبِ الَّذي اختارَهُ لهُ ميراثًا... إنَّ عينَ الرَبِّ إلى مُتَّقيه المُنتَظرينَ رحمتَه، **ليُنقِذَ من الموتِ نُفُوسَهُم ويُحييَهُم في الجوع**. نفوسُنا تنتظرُ الرَبَّ فهو نُصرَتُنا ومِجَنُّنا. به تفرَحُ قلوبُنا وعلى اسمِه القُدُّوس تَوَكَّلْنا. لِتَكُن أيُّها الرَبُّ (الثالوثُ الأقدَس) رحمتُكَ علينا بحسبِ رجائنا لكَ" (مز32: 1، 4-6، 12، 18-22)، فنرفع بشفاعة مريم البتول أُمُّ الرحمة والمحبَّة المجد والشكر إليكَ، إلى الأبد. آمين.